المبحث الأول

مراحل الاستيطان اليهودي في فلسطين

أ. عبد الرحمن أبو عرفة*

مقدمة

يتمثل الغرض الأساسي للحركة الصهيونية، بجمع أكبر عدد ممكن من يهود العالم وتركيزهم في "إسرائيل" من خلال عملية "انقلاب ديمغرافي" يستبدل بها اليهود بمواطني البلاد العرب، ولقد اعتبر مبدأ التخلص من العرب بتهجيرهم الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأحلام الصهيونية. ولقد بذل زعماء الحركة الصهيونية جهودا محمومة من أجل تهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين، على اعتبار "أن استمرار تقدم الهجرة اليهودية، ليس فقط المهمة المركزية للدولة اليهودية، بل هو التبرير الجوهري لتأسيسها ووجودها".

وبالرغم من الادعاء القائل، بأن هجرة اليهود إلى فلسطين، ومن ثم تأسيس الدولة اليهودية، كان تنفيذا لواجب ديني، وتطبيقاً لنبوءات "التوارة" فإن ملاحظة الظروف التي واكبت موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وبالتالي انبثاق الحركة الصهيونية بمفهومها السياسي، تظهر أن هناك أسباباً أخرى وراء تلك الموجات، ذلك أن معظم الهجرات الرئيسية، بدأت منذ أواخر القرن الماضي، نتيجة الظروف الخاصة التي ميزت المجتمعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم، ولا سيما في شرق أوروبا، كرد فعل على موجات الاضطهاد التي تعرضت لها تلك الجماعات. ومما يثبت ذلك، أن الغالبية العظمى من المهاجرين اليهود، توجهت إلى بلدان أخرى غير فلسطين وبخاصة إلى الولايات المتحدة، وحتى في موجات الهجرة اللاحقة، بقي الاضطهاد الذي تعرض له اليهود، وخاصة في

* مدير الملتقى الفكري العربي في القدس.

ألمانيا النازية، هو الدافع الأساسي للهجرة، وحتى من الناحية الجغرافية، وبالرغم من نشوء الحركة الصهيونية ذات التوجه السياسي، فإن محاولة إيجاد وطن قومي لليهود، لم تعين فلسطين كمكان لا بديل له، حيث اقترحت عدة أماكن لإقامة هذا الوطن منها: اوغندا أو كينيا في إفريقيا، وجزيرة قبرص أو شبه جزيرة سيناء في آسيا، وكذلك الأرجنتين في أمريكا الجنوبية، التي بذل بها بالذات محاولات عملية واسعة لشراء الأراضي وتأسيس استيطان يهودي لا زالت بقاياه موجودة حتى الآن.

ولقد ظلت عملية المقارنة والتفاضل بين فلسطين والأماكن الأخرى، مجال أَخذ ورد بين زعماء الحركة الصهيونية، إلى أن تم البت بالأمر عام ١٨٩٧ مع انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول ، الذي صاغ البرنامج الصهيوني، ونص على أنه "تسعى الصهيونية إلى بناء وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام".

مرحلة ما قبل الصهيونية

وفدت إلى فلسطين عام ١٧٧٧ أول جماعة اشكنازية، وفي عام ١٨١٢ تأسست لأول مرة الطائفة الاشكنازية في القدس، إلا أن ذلك لم يفلح في زيادة أعداد اليهود بصورة ملموسة، ولا سيما بعد أن بدأت الهجرات اليهودية إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٨، ويعتبر تأسيس المدرسة الزراعية اليهودية "مكفيه يسرائيل" بواسطة جمعية الأليانس عام ١٨٧٠ أول عملية استيطانية زراعية يهودية في فلسطين .

وتُعَدّ أعمال الاضطهاد والمذابح التي تعرض لها اليهود في روسيا ، السبب المباشر في الهجرات اليهودية إلى فلسطين ، ولقد أدت هذه الهجرات على ضآلة نسبتها ، إلى زرع البذور الأولى للمشروع الصهيوني في فلسطين ، وكان من آثار هذه المذابح أن قام اليهودي الروسي "يهودا بنسكر" عام ١٨٨١ بنشر كتاب "التحرر الذاتي" الذي دعا إلى الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وفي العام التالي ١٨٨٢ أنشأت في روسيا حركة "محبي صهيون" التي شكل أعضاؤها نواة المهاجرين الروس إلى فلسطين .

بدأت المذابح ضد اليهود في روسيا سنة ١٦٤٨، إلا أن نشاطها الفعال بدأ في أواخر القرن التاسع عشر، ففي عام ١٨٨١ حدثت ثمان مذابح ضد اليهود، ثم جاءت مذبحة "يالطا" في العام التالي، مما أدى إلى هجرة أكثر من أربعين ألف يهودي، توجه ثلاثة آلاف منهم إلى فلسطين، وفي عام ١٨٨٣ جرت عدة مذابح ضد اليهود، وفي السنوات التالية، حدثت مذابح أخرى، كان أبرزها مذبحة "جومل" عام ١٩٠٣ ، وفي عام ١٩٠٥ "اوديسا" و"سيدلتس" عام ١٩٠٧ .

ونظرا لتفاقم الأوضاع، فقد تم خلال المدة من ١٩٠٥–١٩١٤ هجرة أكثر من مليون يهودي من روسيا توجه منهم ١,١٠٠,٠ إلى الولايات المتحدة ٢٤,٠٠٠، فقط إلى فلسطين. وخلال المدة من ١٨٨٠–١٩١٤ هاجر من روسيا أكثر من مليوني يهودي إلى الولايات المتحدة و٢٠٠ ألف إلى بريطانيا و٦٠ ألف إلى فلسطين.

مرحلة ما بعد الصهيونية

بما أن العنصر البشري يشكل الأساس الأول لعملية الاستيطان، فإن تتبع مراحل الهجرة اليهودية إلى فلسطين، يُعَد من أكثر الأمور توضيحا لمراحل تطور المشروع الاستيطاني اليهودي.

تميزت موجات الهجرة اليهودية المتعاقبة إلى فلسطين، واختلفت سواء من حيث مكان القدوم، أو من حيث نوعية المهاجرين، أو المهمة المنتظرة منهم، وخطة الهجرة كما رسمها "هرتزل"، بينت ذلك "أن الفقراء يذهبون أولا، لتمهيد الطرقات وبناء الجسور والبيوت والضروريات الأخرى، ثم يأتي بعد ذلك الموسرون، وأخيرا يأتي المهاجرون الأثرياء".

فقد اتسمت كافة موجات الهجرة اليهودية في فلسطين -في الغالب- بظاهرتين:

- ارتباطها الزمني مع موجة اضطهاد ضد اليهود في أماكن تواجدهم .
- ارتباطها الجغرافي مع الأماكن التي تمت بها أعمال الاضطهاد. وتصنف الهجرات اليهودية عموما إلى عدة مراحل حسب ما سيرد لاحقاً.

الهجرات الصهيونية إلى فلسطين

الهجرة الأولى ١٨٨٠–١٩٠٣

تكونت هذه الموجة غالباً من يهود روسيا ومن يهود دول شرق أوروبا، الذين بدأت هجرتهم بعد اغتيال القيصر الروسي "الاسكندر الثاني" عام ١٨٨٠ التي تبعها أعمال قتل واضطهاد ضد اليهود.

وربما يكون من الأنسب تقسيم هذه الهجرة إلى فترتين زمنيتين:

المرحلة الأولى ١٨٨٠- ١٨٩٧

وهي التي تكونت من جماعة "محبي صهيون" وتمت تحت رعاية البارون روتشيلد (١٨٨٥–١٩٠٠) وتمكنوا بدعم مادي منه من الحصول على أراضٍ زراعية (٣٢٠٠ دونم) في ريشون لصيون وفي جديرا، وقد نتج عن هذا الدعم ظهور "طبقة من الملاكين الذين يوكلون أعمالهم الزراعية إلى أيد عربية".

المرحلة الثانية ١٨٩٧– ١٩٠٣

وهي التي ترافقت مع ظهور الحركة الصهيونية السياسية بعد نشر "هرتزل" كتابه "الدولة اليهودية" عام ١٨٩٦، وتميزت هذه الفترة بنشاط واضح في المجال الصهيوني التنظيمي والسياسي ، حيث عقد "المؤتمر الصهيوني" الأول عام ١٨٩٧ الذي نتج عنه تأسيس "المنظمة الصهيونية العالمية" وانعقاد خمسة مؤتمرات تالية له حتى عام ١٩٠٣، واسفرت عن تأسيس "الشركة اليهودية للاستعمار "عام ١٩٠٢" والشركة البريطانية الفلسطينية "عام ١٩٠٣ التي أصبحت فيما بعد "البنك البريطاني الفلسطيني".

ومع حلول عام ١٩٠٣ كان ١٠,٠٠٠ يهودي قد استوطنوا فلسطين فيما مجموعه ٢٨ مستوطنة، أكثر من نصفهم في الأراضي الزراعية التي بلغت مساحتها ٣٥٠ ألف دونم.

الهجرة الثانية ١٩٠٤–١٩١٧

مع حلول عام ١٩٠٤ كانت الايدولوجية الصهيونية قد اتخذت أبعادها الرئيسية، بالرغم من أن موت هرتزل كان عام ١٩٠٤، وكذلك عودة النقاش حول إمكانية

استعمار أوغندا، أثر في حركة الهجرة كذلك أَثر على نشاط المهاجرين أنفسهم. وأمام هذا الوضع، كان لا بد أن يعمل زعماء الحركة الصهيونية بحزم من أجل تطبيق قرارات المؤتمرات الصهيونية ، وحالف الحظ هؤلاء الزعماء نتيجة للمذابح التي تعرض لها اليهود في "كيشينيف" ١٩٠٣–١٩٠٥.

وربما تعد هذه الفترة من أشد الفترات نشاطاً بالأحداث الدراماتيكية التي ساعدت بصورة أو بأخرى على توجيه دفة الأمور لصالح المخططات الاستيطانية الصهيونية، وبالرغم من أنه لم تتم خلال هذه الفترة عمليات استيطانية مركزة، وكذلك لم يتم خلالها هجرة يهودية مؤثرة، إلا أن أحداث هذه الفترة ظهرت نتائجها في مراحل لاحقة، ففي عام ١٩٠٨ بدأت حركة المقاومة العربية ضد الحكم العثماني، في وقت لم يتنبه به أي من العرب أو الأتراك إلى حقيقة النوايا الصهيونية والتي بدأت تأخذ أبعادا عملية مع تأسيس "مكتب فلسطين" برئاسة "ارثور روبين" عام ١٩٠٨ وتأسيس منظمة "هشومير هتسعير– الحارس الفتي" عام ١٩٠٩ والتي تعتبر نواة العسكرية اليهودية في فلسطين، ومع نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانهماك السلطات التركية بأمور الحرب، في الوقت الذي تصاعدت به النقمة العربية للحكم التركي، والذي ترافق مع تردي الأوضاع الاقتصادية الذي تسبب في انفلات حبل الأمن، مما ترتب عليه بروز أعمال النهب، وتزايد أعمال قطاع الطرق، الأمر الذي استثمرته الحركة الصهيونية ، في تأليب اليهود ضد السكان العرب، ضمن محاولتها لخلق "وعي قومي" لليهود في فلسطين وفي أقطار العالم الأخرى، ومع انتصار الثورة البلشفية الروسية في تشرين أول ١٩١٧، وكشفها لاتفاق سايكس بيكو ، الذي خيب آمال العرب في وعود بريطانيا ، وما زاد الأمور سوءا، صدور "وعد بلفور" في تشرين ثاني من العام نفسه، واحتلال بريطانيا لفلسطين عام ١٩١٨، وتواطؤها مع حركة الهجرة اليهودية، أصبح السكان العرب الخارجون من محنة الحرب بين "فكي الكماشة" الاستيطان الصهيوني والاحتلال

البريطاني المتواطئ، وكان عليهم مواجهة حركة استيطانية منظمة ومدعومة ماديا ومعنويا على المستويات الرسمية والشعبية .

أما على صعيد الهجرة فمن مجموع أكثر من مليون يهودي تركوا روسيا خلال فترة الهجرة الثانية، فقد توجه ٢٤ ألفاً منهم إلى فلسطين.

لقد أدى هذا الوضع، إضافة إلى تأثر اليهود الروس بالأفكار الاشتراكية التي سادت روسيا في تلك الفترة، إلى محاولة تجميع أنفسهم بأشكال اشتراكية، حيث أقيمت أوائل الكيبوتسات "دجانيا" ، وكذلك في منظمات عمالية، حيث تاسست منظمة "بو على صيون – عمال صهيون" على يد نحمان سيركين" و"بير بوركوف" اللذان ناديا بصهيونية اشتراكية، كذلك فقد تأسست منظمة العامل الصغير – هبوعيل هتصعير" على يد "غوردون" ، ولما لم تفلح هذه المنظمات في حصول أعضائها الشباب على العمل، تأسست منظمة جديدة باسم هاهلوتز – المتطوع" وكانت تطالب، كما يبدو من أَسمها، بالعمل المجاني مقابل لقمة العيش.

وفي هذه المرحلة، فإن الاستيطان اليهودي في فلسطين، لم يجابه بمعارضة عربية ظاهرة، وإن كان الشك قد بدأ يتسرب إلى نفوس العرب حيث "إن قيام الحركة الصهيونية العالمية على يد ثيودور هرتزل وتشكيل الكونغرس الصهيوني، وخلق هيئات تنفيذية ذات نفوذ بالغ للقيام باقتناء الأراضي والتمويل، ولربما، ولا أقل من ذلك، تحديد الهدف النهائي للصهيونية على يد هرتزل بالذات، وهو إقامة دولة يهودية فيما أسماه "إسرائيل" ، هذه الأمور كلها أضاءت الضوء الأحمر وأطلقت صافرة الإنذار في أوساط طلائع الحركة الوطنية وزعمائها" ، ومع نهاية الحرب العالمية الاولى كان عدد اليهود في فلسطين قد بلغ ٨٠,٠٠٠ نسمة، وبلغ عدد المستوطنات اليهودية خمسون مستوطنة.

الهجرة الثالثة ١٩١٨– ١٩٢٣

تُعَد هذه الهجرة، من الناحية الجغرافية والسببية، امتدادا للهجرة الثانية التي قطعت بسبب الحرب، فمع نشوب الثورة الروسية التي تعرض اليهود في بدايتها للمذابح في

أوكرانيا، وفيما بعد بولندا والمجر، وبالرغم من أن غالبية اليهود هاجروا إلى الولايات المتحدة، فإن قسما لا بأس به توجه نحو فلسطين (قرابة ٣٥ ألف نسمة)، متأثراً بذلك بالنشاط الصهيوني الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، حيث أعيد تنظيم المؤسسات الصهيونية، وتأسيس منظمات جديدة أكثر تطرفاً (منظمة بيتار) ووصول الزعماء الصهيونيين المنفيين "كبن غوريون" و"اسحق بن تسفى" إلى فلسطين، وإناطة مهمة تأمين العمل اليهودي في فلسطين للصندوق القومي.

شهدت هذه الفترة كذلك، تغييرات أساسية في فلسطين أثرت في طبيعة الأوضاع، حيث أقيمت السلطة المدنية البريطانية عام ١٩٢٠، وتمت المصادقة الدولية على الانتداب في تموز ١٩٢٢، مما أدى إلى فتح إمكانيات واسعة، أمام الهجرة اليهودية، نتيجة لالتزام سلطات الاحتلال البريطانية رسميا، بإقامة وطن قومي لليهود بموجب "وعد بلفور" وسماحه ابتداء من عام ١٩٢١ بفتح أبواب الهجرة إلى ١٦,٥٠٠ يهودي سنويا ، وفي حقيقة الامر، فإن مجموع الهجرة اليهودية خلال هذه الفترة بلغ ١١٥ ألف نسمة، ووصل عدد المستوطنات إلى ٧١ مستوطنة.

لقد أدى المهاجرون في هذه الفترة، دوراً فعالا على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، فقد تم على أيديهم، تأسيس الهستدروت ومنظمات عمالية أخرى، إضافة إلى دورهم في الاستيطان الكيبوتسي، متأثرين بذلك بالأفكار الاشتراكية الروسية التى حملوها معهم. ولقد أتاح مهاجرو هذه الفترة تهيئة الفرصة لموجات الهجرة التالية ومن أبرز الأعمال إقامة منظمة "الهاجاناه" عام ١٩٢٠.

الهجرة الرابعة ١٩٢٥–١٩٣٢

ليس واضحاً، أن كانت المصادفة، أم التخطيط المسبق هي التي دعت سلطات الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ إلى إصدار قوانين تحد من الهجرة إليها. وفيما إذا كان لذلك علاقة مع الإجراءات الروسية التي حدت من النشاط الصهيوني.

ومهما كان السبب، فإن هذه الفترة وخاصة السنوات ١٩٢٤–١٩٢٦ شهدت أكبر عدد من المهاجرين اليهود في فلسطين. حيث بلغ عددهم حوالي ٦٢,٠٠٠ شخص ويوازي عددهم حوالي ٧٤ بالمائة من مجموع عدد اليهود في فلسطين عام ١٩٢٢ الذي بلغ ٨٤,٠٠٠ نسمة. وحتى نهاية عام ١٩٣٢ كان مجموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال هذه الهجرة ٩٤,٠٠٠ شخص بمعدل سنوي مقداره ١٠,٠٠٠ مهاجر. وربما يعزى انخفاض معدل الهجرة بعد عام ١٩٢٨ إلى حقيقة، أن الثورة الروسية أسست جمهورية ذات حكم ذاتي لليهود في مقاطعة أذربيجان في ذلك العام، وعلى كل حال، فإن غالبية هؤلاء المهاجرين وفدوا من "بولندا" نتيجة التمييز الاقتصادي ضدهم من قبل وزير المالية البولندي "جرابسكي"، ولذلك أطلق على هذه الموجة من الهجرة "هجرة جرابسكي"، من ميزات هذه الفترة ارتفاع نسبة الهجرة المضادة، فمن مجموع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين عام ١٩٢٦ البالغ عددهم ١٣٨٥٠ مهاجر، ترك نصفهم البلاد في السنة التالية، ومن ٣٠٠٠ مهاجر إلى فلسطين عام ١٩٢٧ عام عاد منهم ٢٠٠٠ شخص، وحتى عام ١٩٢٩، فإن نسبة اليهود المغادرين من فلسطين بلغت ٣٠ بالمئة من عدد القادمين، وربما تكون الأحداث في فلسطين التي بلغت ذروتها في تلك الفترة عام ١٩٢٩ باندلاع "ثورة البراق" بالقدس أثرت على ذلك. لا سيما مع صدور "الكتاب الأبيض" في السنة التالية.

وتميزت فترة الهجرة هذه، بتأسيس المستوطنات المدنية وإقامة الصناعات نتيجة للدعم المالي الكبير الذي قدمته صناديق صهيونية أسست لهذا الغرض، حيث بلغ عدد المستوطنات في نهاية هذه الفترة ١١٠ مستوطنة.

الهجرة الخامسة ١٩٣٣– ١٩٣٨

مع وصول الزعيم النازي "هتلر" للسلطة عام ١٩٣٩، كان عدد اليهود في فلسطين، قد وصل إلى نحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة، وخلال الفترة ١٩٣٣–١٩٣٦ وصل إلى فلسطين ١٩٦,٠٠٠ مهاجراً جديداً، ٢٤,٠٠٠ منهم من ألمانيا، وكذلك تواصلت أعداد

المهاجرين من بولندا، ووصل بذلك عدد اليهود عام ١٩٣٦ إلى نحو ٢٨ بالمئة من مجموع عدد السكان في فلسطين، وكان معظم هؤلاء المهاجرين من الشباب والأولاد اليهود الذين تتراوح أعمارهم بين ١١-١٢ سنة، الذين هجروا بعد التشريد الذي حل بالمجتمعات اليهودية في مناطق الاحتلال النازي، وألحق هؤلاء الفتيان بالمعاهد التعليمية، وتم إسكانهم في الكيبوتسات حتى يمكن تزويدهم بالثقافة الصهيونية. ولقد شهدت هذه الفترة نشاطاً استيطانياً واسعاً ومنظماً، وابتداء من سنة ١٩٣٢ بدأ بتنفيذ مشروع "الألف عائلة" الذي نتج عنه إنشاء عدة مستوطنات في السهل الساحلي، والتي تميزت بطابعها العسكري وبعدها الجغرافي.

وفي أعقاب هذا النشاط الاستيطاني، وأمام تغاضي سلطات الاحتلال البريطاني على الهجرة، لا سيما بعد إنشاء لجنة بيل، والشروع في محاولات لتقسيم فلسطين اندلعت الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦التي كان من نتائجها، حصول هبوط كبير في عدد المهاجرين اليهود، حيث هبط العدد إلى ٦٦,٠٠٠ مهاجر عام ١٩٣٥ إلى ٢٩٦٠٠ مهاجر عام ١٩٣٦، ثم عاد وانخفض إلى ١٠٦٠٠ مهاجر عام ١٩٣٧، ١٤,٦٠٠ مهاجر عام ١٩٣٨.

وتصاعدت أعمال العنف والمذابح الجماعية ضد اليهود في ألمانيا ومناطق الاحتلال النازي، وانتشر الذين أفلحوا بالهرب في دول أوروبا الغربية وأمريكا والمستعمرات البريطانية ومنها فلسطين.

بالإضافة إلى نحو ٢٥,٠٠٠ وصلوا من مناطق أخرى، قسم منهم من يهود العراق وسوريا ولبنان ، الذين هربوا خوفا من خطر الزحف النازي، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، أفلح نحو ٦٠ ألف يهودي في الوصول إلى فلسطين، ومع انتهاء هذه الحرب، سمحت سلطات الانتداب البريطاني لنحو ٧٥٠ من اللاجئين اليهود بالوصول شهريا إلى فلسطين ، حيث وصل في عام ١٩٤٥ نحو ١٥٢٠٠ لاجئ، وعام ١٩٤٦ حوالي ١٨٧٠٠ و٢٢,٠٠٠ عام ١٩٤٧، وحتى ١٤ أيار ١٩٤٨ وصل نحو ١٧٢,٠٠٠ يهودي. وبهذا يكون مجموع عدد اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين خلال فترة الاحتلال

البريطاني، ٤٨٣ ألف يهودي؛ أي حوالي ٦ أضعاف عدد اليهود الذين كانوا موجودين في فلسطين قبل الانتداب، يقطنون في ٢٢٧ مستوطنة.

ومن موجات الهجرة هذه، يتضح أن معظم المهاجرين وفدوا إلى فلسطين خلال عمليات الاضطهاد والتشريد من مختلف دول العالم، وبعد سنتين من انتهاء الحرب العالمية الثانية، وضع الحد لنصف قرن من الصراع الدموي العالمي الذي تعرض اليهود خلاله إلى محاولات تصفية وإبادة جماعية أريد للشعب الفلسطيني، أن يدفع وحده الثمن الكامل لكل ذلك، وكان بهذا كبش الفداء، حيث تعرض لعملية إبادة وطرد جماعي بلغ نحو ٩٠ بالمئة من مجموع هذا الشعب دون ذنب اقترفه.

الهجرة اليهودية بعد إقامة "إسرائيل" ١٥ أيار ١٩٤٨ – ١٩٦٧

بدأت أفواج الهجرة الواسعة إلى فلسطين، قبل أن تنتهي حالة الحرب، حيث وصل خلال المعارك، نحو ٢٥ ألف مهاجر، وخلال الأشهر أيار – آب ١٩٤٨ وصل ٣٣ ألف مهاجر آخر، وتبعهم نحو ٧٠ ألف مهاجر خلال أشهر أيلول – كانون أول وحتى نيسان ١٩٤٩، وصل ١٠٠ ألف مهاجر آخر، وبهذا وصل عدد المهاجرين اليهود خلال السنة الأولى من إقامة الدولة ٢٠٣ آلاف مهاجر جاءوا من ٤٢ قطراً، ومع طرد مئات الآلاف من المواطنين العرب، وإفراغ المدن والقرى العربية في فلسطين من سكانها، أصبح المجال متسعا لاستيعاب مئات الألوف البديلة من اليهود، لتحقيق "الحسم الديمغرافي" في فلسطين، ومع إقامة "دولة اسرائيل" فتح الباب على مصراعيه أمام يهود العالم بالقدوم، وجاء في "إعلان قيام الدولة" أنها ستكون مفتوحة للهجرة اليهودية، وكان أول نشاط للحكومة هو رفع جميع القيود التي كانت مفروضة على الهجرة اليهودية، و"لتقنين" عملية الهجرة هذه، أصدرت "الكنيست" بتاريخ ٥/٧/١٩٥٠ ما يسمى "بقانون العودة" الذي يمنح كل يهودي حق الاستيطان في إسرائيل، واليهودي المقصود هو كل يهودي دخل فلسطين، مهاجراً قبل صدور القانون، وكل يهودي ولد في فلسطين قبل أو بعد صدور القانون، وكذلك لأي يهودي يزور الدولة ويعبر عن رغبته في الإقامة بها،

ولا يستثنى من ذلك سوى اليهود الذين سبق اشتراكهم في نشاط معاد للشعب اليهودي، أو الذين يشكلون خطرا على الصحة العامة أو خطرا على أمن الدولة، وأوضح "بن غوريون" خلال تقديمه لمشروع القانون، أن هذا القانون ينص على أن الدولة ليست هي التي تمنح حق الاستيطان لليهود في المهجر، ولكن هذا الحق متلازم مع كل يهودي لمجرد كونه يهوديا. وتم وفقا لذلك تنفيذ العملية التي اطلق عليها "بساط الريح"، التي استهدفت خاصة، جلب يهود الدول العربية، حيث "إن الصهيونية قد عجزت عن إنقاذ يهود أوروبا، وأصبحت بعد انتهاء الحرب العالمية دونما هدف مقبول، ومن أجل تقديم تبرير أدبي، لموضوع قيام الوطن، سعى الصهاينة إلى إنقاذ يهود آخرين، رغماً عنهم والوحيدون الذين ينطبق عليهم ذلك، إنما كانوا يهود العالم العربي".

وفي هذا المجال، فإن هذه المنظمات الصهيونية، عملت وفق ما يبدو أنه تنفيذا لإيحاء القيادة الصهيونية التي عبر "بن غوريون" عن موقفها بقوله: "أنا لا أخجل أن أعترف بأنه لو كان لدي من السلطة بقدر ما عندي من الرغبة، لانتقيت عدداً من الشباب الموهوب، المتطور، المستقيم والوفي لقضيتنا والمتوقد رغبة في تغيير أخلاقية اليهود وإرسالهم إلى البلدان التي غرق فيها اليهود وبرضا عن النفس، ولأمرت هؤلاء الشباب بالتظاهر باللايهودية وملاحقة اليهود بالأساليب اللاسامية السمجة".

ومن مجموع ٥٨٦,٢٦٨ من اليهود الذين هاجروا من الدول العربية، فإن ٣٨٧,٠٠٠ منهم وصلوا إلى إسرائيل خلال الأعوام ١٩٤٨– ١٩٥١، بينما لم يهاجر من هؤلاء اليهود إلى فلسطين حتى عام ١٩٤٨ سوى ٤٥ ألف شخص. لقد أتاحت حقيقة تهجير مئات ألوف الفلسطينيين من مساكنهم، الفرصة لاستيعاب هذه الهجرة اليهودية الضخمة في أكثر من ٤٠٠ قرية ومدينة عربية أُجلي سكانها عنها، وأصبحت بمثابة مستوطنات يهودية، الأمر الذي رفع عدد المستوطنات اليهودية لغاية هذه الفترة إلى ٧٠٨ مستوطنة .

الهجرة اليهودية بين ١٩٦٨– ١٩٧٣

في أعقاب حرب عام ١٩٦٧، شهدت الدولة الإسرائيلية، تصاعداً ملحوظاً في الهجرة اليهودية إليها، بعد أن شهدت انخفاضاً واضحاً في سنوات ١٩٦٦، ١٩٦٧ وفي

السنوات الثلاث السابقة لحرب "أكتوبر" ١٩٧٣ بلغ معدل الهجرة السنوي نحو ٥٠ ألف نسمة، نتيجة لقدوم أعداد كبيرة من يهود الاتحاد السوفيتي على إثر الحملة الشعواء ضد الاتحاد السوفيتي ، وخلال الفترة ١٩٧٠–١٩٧٦ ترك الاتحاد السوفيتي ١١٨ ألفاً من اليهود الروس هاجر منهم إلى إسرائيل ١١٠ آلاف نسمة، وبلغ عدد المستوطنات ٧٤٥ مستوطنة منها ١٥ مستوطنة في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

الهجرة بين سنوات ١٩٧٤– ١٩٨٠

أثرت حرب "أكتوبر" بشكل حاد على الهجرة اليهودية، حيث انخفض المعدل السنوي العام بنسبة ٤٥ بالمئة خلال السنوات الخمس التالية للحرب، بالإضافة إلى ارتفاع معدل الهجرة المضادة للفترة نفسها، فمن معدل ٨٠٠٠ شخص تارك سنوياً في السنوات الخمس السابقة لحرب أكتوبر، ارتفع إلى ٣٩ ألفاً، ٣٧ ألفاً في سنوات ١٩٧٤، ١٩٧٥ على التوالي، كذلك أثرت الأوضاع في إيران إثر سقوط نظام الشاه، مما أدى إلى ارتفاع أعداد اليهود المهاجرين من ايران إلى إسرائيل كذلك، فإن هنالك الكثير من اليهود القادمين من روسيا، قد تركوا إسرائيل ثانية بعد وصلوهم إليها.

الهجرة بين سنوات ١٩٨١– ١٩٨٨

شهدت هذه الفترة هجرة ١٢٣ ألف يهودي معظمهم من اليهود القادمين من أوروبا وأمريكا، وعموماً تتميز هذه الفترة بانخفاض معدلات الهجرة التي تراوحت حول ١٢ ألف مهاجر سنوياً فقط، ومن جهة أخرى شهدت ذات الفترة تنامياً في إنشاء المستوطنات خاصة في الأراضي المحتلة، الأمر الذي يستنتج منه، أن هناك استعدادات كانت جارية للتمهيد للهجرة اليهودية الواسعة من الاتحاد السوفيتي التي أعقبت هذه الفترة مباشرة.

ومع ذلك تتميز هذه الفترة ببدء الحملة الصهيونية لتهجير اليهود الإثيوبيين، الفلاشا، التي استمرت لمدة ٢٠ عاماً ابتداء من عام ١٩٨٠ وحتى ٢٠٠٠، وتم بها تهجير نحو ٦٢ ألف أثيوبي منهم نحو ٢٠ ألفاً خلال الفترة ١٩٨٠–١٩٩٠، وبلغ عدد المستوطنات ٧٧٥ مستوطنة منها ٢٥ مستوطنة في الأراضي المحتلة.

الهجرة بين سنوات ١٩٨٩–٢٠٠٣

مع بداية انهيار الاتحاد السوفيتي، بدأت حملة صهيونية منظمة ومدعومة من الولايات المتحدة لتهجير يهود الاتحاد السوفيتي، ونتيجة لهذه الحملة فقد وصل إلى إسرائيل خلال فترة عشر سنوات (١٩٩٠– ٢٠٠٠) ما مجموعه ٨٨٦,٠٠ مهاجر يهودي من الاتحاد السوفيتي إضافة إلى ١١٣,٠٠٠ مهاجر خلال السنوات الثلاث التالية ٢٠٠١– ٢٠٠٣.

وربما تعتبر هذه الهجرة، هي الأكبر بعد عملية بساط الريح (١٩٤٨–١٩٥٣) التي وصل خلالها ما مجموعه ١,١٢٤٠٠٠ يهودي.

ومن أجل استيعاب هذه الأعداد المتزايدة استغلت الحكومات الإسرائيلية الفائض في المساكن التي أقامتها في المستوطنات سواء داخل أو خارج الخط الأخضر، ثم الكرافانات المتنقلة، ثم بدأت عملية بناء استيطان واسعة مستغلة ضمانات القروض بقيمة عدة مليارات من الدولارات من الولايات المتحدة، التي اعتبرت في حينه (١٩٩٢) بمثابة ثمن للمشاركة الإسرائيلية في مؤتمر مدريد الذي انعقد في تلك الفترة، كما شهدت هذه الفترة كذلك ذروة الهجرة الإثيوبية، حيث وصل خلال هذه الفترة ٤٣,٠٠٠ مهاجر جديد من أثيوبيا، تمت إضافتهم إلى نحو ٢٠,٠٠٠ مهاجر أثيوبي سبق أن وصلوا خلال الفترة ١٩٨٠–١٩٩٠.

أما ذروة الهجرات خلال هذه الفترة، فقد تمت خلال عامي ١٩٩٠ و ١٩٩١ التي وصلت خلالها ٣٧٧,٠٠٠ مهاجر، ثم استقر المعدل نحو ١٧٥ ألف مهاجر سنوياً خلال الفترة، ١٩٩٢–٢٠٠٠ ثم بدأت فترة تراجع واضحة مع استمرار الانتفاضة الفلسطينية الثانية، حيث لم تسجل السنوات ٢٠٠١–٢٠٠٣ سوى ما مجموعه ٩٥,٠٠٠ مهاجر، وبلغ عدد المستوطنات حتى هذه الفترة ٧٩٠ مستوطنة، منها نحو ١٧٠ مستوطنة في الأراضي المحتلة.

ملاحظات على احتمالات الهجرة اليهودية إلى إسرائيل في السنوات القادمة

حتى مطلع هذا القرن، كان عدد اليهود في فلسطين يشكل نصف بالمائة من مجموع عدد اليهود في العالم، ارتفعت إلى ٥,٧ بالمائة عام ١٩٤٨ مع تواصل موجات الهجرة، وبعد ٥٥ سنة من إنشاء الدولة اليهودية أصبحت تضم ٤٠ بالمائة من مجموع يهود العالم. ويتركز بقية اليهود في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وأميركا اللاتينية وفرنسا وبريطانيا وعدد من الدول الأخرى، وتشير كافة التقديرات إلى أن الهجرة اليهودية إلى إسرائيل آخذة بالانخفاض، والآمال معقودة في إسرائيل، على تحقيق هجرة سنوية تتراوح بين ٢٠–٥٠ ألف يهودي سنويا، وإذا أخذت هذه الأرقام في الحسبان، وهي أرقام متفائلة، فإن ذلك يعني أن تهجير جميع يهود العالم في إسرائيل، سيحتاج إلى فترة زمنية بين ٢٠٠–٥٠٠ عام، هذا إذا أمكن تهجيرهم فعلا. إضافة إلى ذلك، فإن الهجرة المضادة من إسرائيل إلى الخارج، آخذة بالارتفاع التدريجي إلى الحد الذي أصبحت تؤثر به على معدل الارتفاع السنوي في عدد السكان، مما حدا ببعض الأصوات داخل إسرائيل، إلى المطالبة بوضع تشريعات قانونية تحد من هذه الهجرة.

ويبدو أن الأمر الوحيد الذي من شأنه أن يرفع الهجرة اليهودية إلى إسرائيل بما يتلاءم والتطلعات الصهيونية، يكمن في حدوث تغييرات دراماتيكية في أماكن تجمّع اليهود، تدفع بهم إلى القدوم إلى إسرائيل. وفي الوقت نفسه الذي تؤثر به مثل هذه التغييرات سلبيا على الهجرة من إسرائيل إلى الخارج، في حالة وقوع مثل هذه التغيرات في المنطقة، فإن إمكانية حدوث هذه التغيرات في العالم هي إمكانيات مجهولة.

ومن المستبعد أن يكون النجاح النسبي الذي رافق الهجرة الاندفاعية (١٩٤٨–١٩٥١) من حليف أي هجرة مشابهة حديثة، نظرا لاختلاف الظروف، ففي أعقاب إنشاء إسرائيل الذي ترافق مع طرد مئات الألوف من المواطنين العرب من منازلهم، كان من السهل استيعاب المهاجرين في هذه المساكن الفارغة، ويقود ذلك إلى الاستنتاج أنه في حالة حدوث حرب جديدة ونجاح إسرائيل في طرد أعداد كبيرة من العرب مرة أخرى،

فإن إمكانية لجوء إسرائيل إلى استقدام هجرة يهودية واسعة لن تكون سعيدة، وعلى العكس، فقد تعمد إسرائيل لاستغلال كل الوسائل الممكنة من أجل تهجير العدد اللازم من اليهود من المكان الأكثر ملائمة لها، وكما حدث في أعوام ١٩٤٨–١٩٥١، فلن يكون مستبعدا اللجوء لاستعمال وسائل مشابهة لتلك التي استعلمت لتهجير يهود العراق مثلا. إن إمكانية كهذه مستبعدة في كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، لأسباب خاصة بطبيعة الظروف في كلا البلدين، إلا أن الأمر يختلف في حالة دول مثل فرنسا وكندا والأرجنتين وربما بريطانيا أيضاً. وإذا كانت هجرة يهود الاتحاد السوفيتي مرغوبة، فإن الوضع في الولايات المتحدة هو مغاير تماما، حيث تشير الدلائل إلى أن إسرائيل لا ترغب حاليا في هجرة يهود الولايات المتحدة، نظراً لعدة أسباب، منها: الاستفادة من نفوذهم السياسي والاقتصادي والإعلامي وحتى العسكري داخل الولايات المتحدة، وكذلك الاستفادة من طاقتهم المادية الضخمة، باعتبارها موردا هاما للمدخولات الإسرائيلية، كما أن هذه الهجرة ستلحق أضراراً على المستوى الداخلي في إسرائيل، كونها ستزيد من ارتفاع نسبة جهاز الخدمات على حساب الجهاز الإنتاجي، مما يؤدي إلى زيادة نسبة التضخم، كذلك ستؤدي هجرة يهودية أمريكية واسعة إلى تعميق الصراعات الطبقية والعرقية بين اليهود، نظراً لتلقائية تمتع هؤلاء المهاجرين بامتيازات عالية توافق أذواقهم الناتجة من مستوى الحياة المرتفع الذي اعتادوا عليه.

أما إذا أرادت إسرائيل، الشروع بمغامرة اختيار هجرة أعداد كبيرة من يهود الولايات المتحدة مقابل انخفاض التأثير اليهودي على السياسة الامريكية، فإن ذلك مرهون بظروف خاصة، أقلها أن تصبح قوة عسكرية اقتصادية ضخمة تؤهلها للاستقلالية عن الولايات المتحدة، أي الوصول إلى حالة يصبح فيه النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة، أقل أهمية من هجرة اليهود إلى إسرائيل، وإذا حدث مثل هذا الاحتمال، فإن من مستلزماته التلقائية، الحاجة إلى أعداد كبيرة من المهاجرين للحفاظ على هذه الاستقلالية.

إن الاحتمال الآخر، القائم على افتراض تدهور الأوضاع الاقتصادية في الولايات المتحدة، سيؤدي بلا شك إلى هجرة يهودية واسعة إلى إسرائيل، إلا أنه من الصعب الاستنتاج، أن هناك مصلحة لإسرائيل في حدوث مثل هذه الحالة طالما أن ازدهار الاقتصاد الامريكي، ينعكس بشكل إيجابي على الأوضاع في إسرائيل ومنها الوضع الاقتصادي، الذي إذا أمكنه امتلاك المؤهلات، التي تكفل تحقيق أرباح لرؤوس الأموال، مقاربة لتلك الأرباح التي تحققها في الولايات المتحدة، فإن احتمال تشجيع انتقال أصحاب رؤوس الأموال إلى إسرائيل يصبح أمراً ملحاً. وينطبق هذا الوضع بشكل نسبي، على الدول الغربية الأخرى، مثل بريطانيا وفرنسا.

ومهما كانت الاحتمالات، فإن على إسرائيل أن تظل في حالة استنفار ديمغرافي متواصل، للخروج من المأزق، المتلازم باستمرار مع الطبيعة العنصرية لنظام الحكم .